المشرق الرقميّة
١٦
العدد السادس عشر
حزيران ٢٠٢٠

مراجعة كتاب:

«لِم اشتدَّ عشق الإنسان لهذا العالم؟»

مختارات من الهوامل والشوامل:
أبو حيّان التوحيديّ يسأل وأبو عليّ مِسْكويه يجيب

اختيار: **بلال الأرفه لي وإيناس خنسه**
تصوير: **ورد الخلف**

نادين عبّود*

يمكن اعتبار كتاب **الهوامل الشّوامل** مرآةً تعكس وجهًا من أوجه الحياة الفكريّة في بلاد المشرق في القرن الرّابع للهجرة، والّذي اعتُبر عصر الازدهار والنّهضة الفلسفيّة. وهو كتابٌ قلّ نظيره لجهة كونه مؤلَّفًا له مؤلِّفان هما سائلٌ ومُجيب، فلولا السّؤال لما كان الجواب، ولو لم يُجمعا معًا لما كان الكتاب. لا يدري الباحثُ إنْ كان قد دار في خلد السّائل أن تكون أسئلته نواةً لكتاب ستتناوله الأجيال على مرّ القرون والأعصار! لكن من المؤكّد أنَّ المجيب قد تذرّع بالأسئلة الّتي وصلته لتكون أبوابًا لكتاب يشتمل على موضوعات فلسفيّة وطبيعيّة وإنسانيّة وأخلاقيّة ودينيّة وكلاميّة. السّائل هو الأديب وصاحب المؤلّفات الموسوعيّة أبو حيّان التّوحيديّ، والمجيب وواضع الكتاب هو أبو عليّ مِسْكويه الرّجل الموسوعيّ في زمانه. وصف أبو حيّان أسئلته التي بعث بها إلى ابن مسكويه بـ«الهوامل»، أي الإبل السائمة يهملها صاحبها ويتركها، وقد يكون قصده من ذلك المسائل المتروكة الّتي أهملها النّاس ولم يكترثوا بمعرفتها، فما كان من المجيب إلّا أن وصف أجوبته بـ«الشّوامل»، الحيوانات التي تضبط الإبل الهوامل فتجمعها.

* طالبة ماجستير في الجامعة الأميركيّة في بيروت.

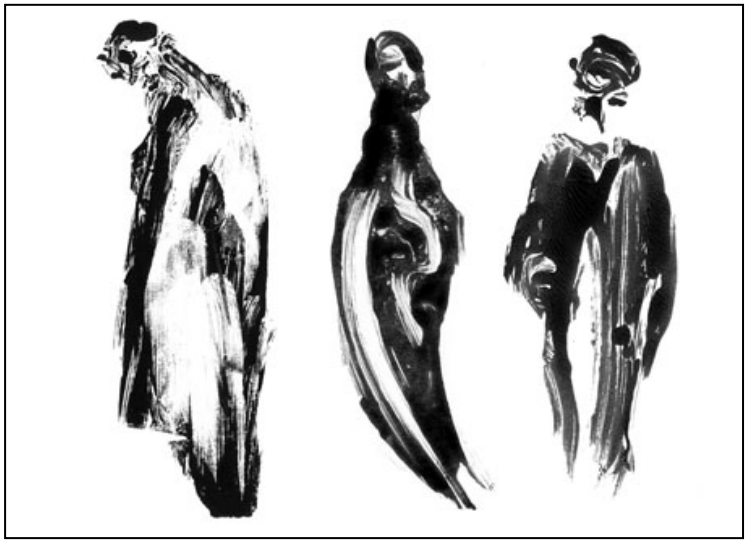

الكهولة والشباب: لِمَ لم يرجع الإنسان بعدما شاخ وخرف كهلًا ثمّ شابًّا غريرًا ثمّ غلامًا صبيًّا ثمّ طفلًا كما نشأ وعلام يدلّ هذا النظم وإلى أيّ شيء يشير هذا الحكم؟

عدد الأسئلة الّتي بعث بها أبو حيّان إلى ابن مِسْكويه هو مائة وخمسة وسبعون سؤالًا تكوّن مجموع أبواب الكتاب الّتي جاءت في صورة سؤال وجواب. ومجموع الأسئلة والأجوبة قد كوّن كتابًا ضخمًا قد لا يُقبل كُثْرٌ على قراءته، إلّا إذا كان لبحث أكاديميّ ومن قِبَل باحثٍ متخصّص في الأدب والفلسفة وسائر العلوم الّتي كانت رائجة في المشرق في العصور الوسطى.

قد يكون هذا هو ما حفز أستاذَيّ الأدب العربيّ القديم في الجامعة الأمريكيّة في بيروت، الدكتور بلال الأرفه لي، وزميلته الدكتورة إيناس خنسه، ليختارا أربعة وثلاثين بابًا من أصل المائة والخمسة والسّبعين، فيقدّما إلى القارئ العربيّ باقةً من روضة الهوامل والشوامل. لم يلتزم الأستاذان بترتيب ابن مِسْكويه للأسئلة والأجوبة، بل وضعا ثلاثة عناوين لكلّ مجموعة من الأبواب المختارة سمّياها بـ«المحاور»، كما أنّهما قد وضعا عناوين لكلّ باب حتّى يتمكّن القارئ من معرفة موضوع كلّ باب، فإنْ لم يرغب في قراءة جميع المختارات يمكنه اختيار ما يناسب ذوقه ويلبّي حاجته الفكريّة، وذلك من خلال النّظر في فهرس العناوين في مطلع المجموعة.

عشق الإنسان للعالم:
لِمَ اشتدّ عشق الإنسان لهذا العالم حتّى لصق به وآثره وكدح فيه مع ما يرى من صروفه وحوادثه ونكباته وغيره وزواله بأهله؟ ومن أين استفاد الإنسان هذا العرض؟

يأتي المحور الأوّل تحت عنوان «أسئلة مقارنة» مثل الفرق بين الكهولة والشّباب، والاختيار والجبر، والتّأنيث والتّذكير، والقلم واللّسان، والنّثر والشّعر وغيرها من أضداد متنوّعة في هذا العالم. أمّا المحور الثّاني فهو لـ «الإنسان والعشق والنّقص»، ويتضمّن

أبوابًا في أحوال الإنسان وفضائله ورذائله ورغباته وغرائزه، وينتهي هذا المحور بباب تحت عنوان «عشق الإنسان للعالم»، فصار هذا هو العنوان الّذي اختاره الباحثان لمجموعة المختارات بأكملها. يتناول المحور الثّالث «مسائل جدليّة»، وقد يكون القصد من وراء اختيار هذا العنوان لهذا المحور هو القول إنّ ثمّة قضايا في العالم وفي حياة الإنسان لم يتّفق عليها أهل الفكر عبر العصور، لكنّ هذا ينطبق أيضًا على بعض الأبواب الواردة في المحورَيْن السّابقين كالاختيار والجبر وتفاضل النّثر والشّعر.

فضائل الشعوب:
ما الفضيلة السارية في الأجناس المختلفة كالعرب والروم والفرس والهند؟ وزعمت أنّك حذفت الترك لأنّ أبا عثمان [الجاحظ] لا يعتدّ بهم إلى ما يتّصل به من كلامك ممّا لم أحكه إذ كانت المسألة هي في قدر ما خرج من حكايتي.

كما ذُكر سابقًا، فالكتاب الّذي وضعه ابن مِسْكويه هو إجابات عن أسئلة اعتبرها أبو حيّان «هوامل»، فهل كان اختيار عنوان «لِمَ اشتدّ عشق الإنسان للعالم؟» هو القول إنّ الإنسان يعشق العالم لأنّه يجهله ويرغب في أن يتعرّف عليه؟ قد يكون في سؤال أبي حيّان وجواب ابن مسكويه إجابة عن ذلك؛ فالسّؤال هو: «لِمَ اشتدّ عشق الإنسان لهذا العالم حتّى لصق به وآثره وكدح فيه مع ما يرى من صروفه وحوادثه ونكباته وغِيَرِه وزواله بأهله؟» في الجواب، نرى ابن مِسْكويه وكأنّه يستغرب من مثل هذا السّؤال ليجيب بصيغة الاستفهام: «وكيف لا يشتدّ عشقه للعالم وهو طبيعيّ وجزءٌ منه [أي إنّ الإنسان كائنٌ طبيعيّ، وبذلك يكون جزءًا من العالم الذي هو الطبيعة الأشمل، فيعشق الجزءُ الكلَّ] إنّما مبدؤه منه ومنشؤه فيه وتولّده عنه...». وكأنّ الباحثَين أرادا من اختيار عنوان «لِمَ اشتدّ عشق الإنسان للعالم؟» أن يقولا بأنّ كتاب **الهوامل والشّوامل** يشتمل على موضوعات تتطرّق إلى مبدأ الإنسان ومنشئه وتولّده عن ذلك المبدأ، ولذلك يرغب الإنسان في معرفة تفاصيل هذا العالم الذي يعشقه، وهوامل أبي حيّان مع شوامل ابن مسكويه يعرّفان الإنسان بذلك المعشوق الكلّيّ الّذي نشأ منه ولكن ما فتئ يجهله.

العمر: لِمَ صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص في الخبر وآخر يزيد على عمره في الخبر؟

تجدر الإشارة إلى أن مختارات **الهوامل والشّوامل**، الّتي ينشرها الدكتور الأرفه لي والدّكتورة خنسه، مرفقة بتصاوير فيها شيءٌ من التّجريد، وتحاول تلك التّصاوير أن تعكس، إلى حدّ ما، مضمون كلّ باب، وهذه الرّسوم التّمثيليّة هي من عمل ورد الخلف. تشكّل هذه التّصاوير قيمة مضافة للمجموعة؛ إذ تُخرجها عن رتابة النّصّ المقروء لتجمع إلى جانبه الصّورة المرئيّة. ناشر هذه المجموعة هو المكتبة العربيّة للنّاشئة في الإمارات العربيّة المتّحدة. ولا شكّ في أنّ كثيرًا من البالغين، علاوة على الناشئة، سيجدون في الكتاب العديد من الأجوبة عن أسئلة طالما راودت أفكارهم، فنابَ أبو حيّان عنهم في طرحها على ابنْ مِسْكويه الّذي كانت إجاباته، في حدّ ذاتها، منطلقًا لطرح أسئلة قد تفتح باب الجَدَل المعنون به المحورُ الثّاني في كتاب «لمَ يعشق الإنسان هذا العالم؟»، والّذي هو سؤال أيضًا. كثير من هذه الأسئلة ما زال يشغلنا، فهل كانت إجابات فيلسوف القرن الرابع الهجريّ شافية؟